



مدينة تونس

مدينة تونس هي مدينة اسلامية أنشئت بعد الثمانين من الهجرة وكان الخليفة ابو جعفر المنصور يقول إذا أقدم عليه رسول من صاحب القيروان يقول له ما فعلت احدى القيروانيين يقصد بها تونس وهذا تعظيماً لها، وهي اليوم قاعدة للبلاد الأفريقية وام بلادها وحاضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين والمهاجرين من اهل الاقطار من الاندلس والمغرب وغيرها، فكثرت خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها وحدثت بها المباني وبينها وبين قرطاجنة عشرة اميال وبين تونس ومرساها بحيرة يقال انها كانت كثيرة الجنات والمياه والزرع وطيبه الفواكه فغلب عليها ماء البحر^(١).

بنيت مدينة تونس سنة (٨٤ هـ / ٧٠٣ م) على يد القائد حسان بن النعمان وتعتبر من اجل اعماله، فاذا كان لعقبة بن نافع فضل السبق في بناء القيروان، وهي اول مدينة قامت على العروبة والاسلام، فإن لحسان فضل اكمال ذلك العمل المجيد، فالقيروان مدينة برية وقامت مدينة تونس لتكون منفذاً للمغرب على البحر، ولتحل محل قرطاجنة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر^(٢).

التسمية

مدينة تونس كان يطلق عليها في التواريخ ترشيش نسبة الى قرية صغيرة اسمها ترشيش، ولما افتتحها المسلمون وأحدثوا البناء بها سموها تونس^(٣)، وقيل سميت تونس لان المسلمين

(١) ابن ابي دينار، ابو عبدالله الشيخ محمد بن ابي القاسم اليعقوبي القيرواني، المونس في أخبار افريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، (تونس ١٨٦٩م)، ٢٦ الحميري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس، دار السراج، ط٢، (بيروت، ١٩٨٠م)، ١٤٣.

(٢) السامرائي، خليل ابراهيم وآخرون، تاريخ المغرب العربي، منيرة دار الكتب، (العراق - ١٩٨٨م)، ٨٩.

(٣) الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطائفي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، عالم الكتب، ط١، (بيروت، ١٩٨٨م)، ٢٨٥/١.

عندما فتحوا إفريقية كانوا ينزلون بقرب ~~من~~ صومعة لراهب وكانوا يأنسون بصوت الراهب، فيقولون هذه الصومعة تونس فلزمها هذا الاسم فسميت تونس^(١).

الموقع

تقع مدينة تونس بأرض المغرب على ساحل البحر، يحدها من الشمال والشرق البحر المتوسط ومن الغرب الجزائر، ومن الجنوب الصحراء الكبرى، ومن الشرق طرابلس (ليبيا)^(٢)، ومدينة تونس تكون في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو، والمسافة من القيروان إلى مدينة تونس مائة ميل، عمرت المدينة من أنقاض قرطاجنة^(٣).

وصف المدينة

يحيط بالمدينة خندق حصين، ولها عدة أبواب وهي: باب الجزيرة ينسب إلى جزيرة شريك ويخرج منه إلى القيروان، ويقابل باب الجبل المعروف بجبل التوبة وهو جبل عال لا ينبت فيه شيء في أعلاه قصر مشرف على البحر، وباب المعشوق يقع شرقي القصر المذكور، وبغربي هذا الجبل يعرف بجبل الصيادة، وفي هذا الجبل سبعة مواجل للماء أقباء على غرار واحد، وبها مزارع متصلة بموضع يعرف بالملعب فيه قصر لبني الأغلب قد غرس بجميع الثمار وأصناف الرياحين، وبشرقي مدينة تونس ميناء وبحيرة، وبشرقيها أيضا باب قرطاجنة دونه من الداخل الخندق، وباب السقائين نسبة إلى السقائين لوجود بئر يعرف ببئر أبي القفار، وباب أرطنة وتجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، وباب الفحامين، وربض المرضى خارج المدينة، ومقابل له ملاحه كبيرة منها ملحهم وملح من يجاورهم^(٤).

(١) كتب مراكشي، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، (بغداد، ١٩٨٦م)، ١٢١/١.
(٢) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، ١٩٦٠م)، ١٧٣، حسين، محمد الخضر، تونس وجامع الزيتونة، دار النوادر، ط١، (بيروت، ٢٠١٠م)، ١٦١، البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، (١٩٩٢م)، ٦٩٣/٢.
(٣) البكري، المسالك والممالك، ٦٩٦/٢-٦٩٧، القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمال القطيعي البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجليل، ط١، (بيروت، ١٩٩١م)، ٢٨٥/١، ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصل، أبو القاسم، صورة الأرض، دار صادر، (بيروت، ١٩٣٨م)، ٧٣/١.
(٤) البكري، المسالك والممالك، ٦٩٦/٢-٦٩٧.

كما تطل المدينة على بحيرة طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي وذلك أن هذه البحيرة لم تكن قبل وإنما حفر في البر حفر انتهى به إلى مدينة تونس^(١)، وبالقرب من تونس بنحو عشرة أميال نهر كبير يسمى بجردة، وهو على الطريق إلى المغرب، ويقال إن من شرب من مائه قسى قلبه فكان الناس يجتنبون شرب مائه، وشرب أهلها من آبار شتى لكن أعظمها قدرا وأحلاها ماء بئرنا احتفرتها بعض سيدات الإسلام ابتغاء الثواب^(٢).

وسهولها من اخصب السهول وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والغروس، وتمتد في الساحل على طول البحر المتوسط ارض خصبة وافره السكان والعمران، واشتهرت قديماً بإنتاج الحبوب وخاصة القمح لذلك سموها قديماً بأجة القمح، ونمر بالساحل ابتداء من مدينه بنزرت وهي ثغر في اقصى الغرب التونسي على البحر المتوسط في موقع ممتاز تحف به مزارع مثمرة وغابات كثيفة وتشتهر بإنتاج الحبوب والبقول والزيتونة فضلاً عن انها ميناء تجاري مهم، والى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينهما شبه جزيرة من اخصب الاراضي التونسية وتكتظ بالغابات الزيتونيه وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال^(٣)، وبمدينة تونس خمسة عشر حمام وفنادق كثيرة، أبواب دور مدينة تونس كلها رخام بديع لوحان قائمان وثالث معترض عليهما مكان العتبة، ودور مدينة تونس أربع وعشرون ألف ذراع^(٤).

اما المناخ تونس فهو مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل نزول الامطار بها يختلف حسب المناطق وهي تكثر في الشمال في فصل الشتاء وتقل قله شديده في الجنوب وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع^(٥).

(١) الانريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ٢٨٥/١.

(٢) كتب مراكنسي، الاستعمار في عجايب الامصار، ١١٢١/١ الانريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، ٢٨٥/١.

(٣) ضيف، شوقي، عصر النول والامارات ليبيا تونس صقليه، دار المعارف (القاهرة، ديت)، ١١٠٠-١٠٩.

(٤) الكري، المسالك والممالك، ٦٩٢/٢.

(٥) ضيف، عصر النول والامارات ليبيا تونس صقليه، ١١١.

١ - جامع الزيتونة

مسجده تونس

يعتبر جامع الزيتونة من أشد آثار العاصمة التونسية أهمية، وأقدمها تاريخاً، واروعها منظراً، أهتم القائد حسان بن النعمان بعمارة المدينة فأنشأ بها مسجداً جامعاً وهو بناء رفيع مطل على البحر، ويرقى إلى الجامع من جهة الشرق على اثني عشرة درجة، وقد اسهم هذا الجامع كثيراً في المجالات العلمية حتى أصبح اكبر جامعة اسلامية فيها العديد من العلماء وهو من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقاً فكان دائرة مسقفاً في وسطه فضاء وقد شيدت فيه أعمده خشبية على قدر ارتفاع الجدار ثم شيدت اليها حبال متينة في حلقات حديدية مثبتة فيها ومن الجانب الاخر في السقوف، فاذا كان الصيف فأنها تنتشر عليها في صلاة الجمعة قطع كتانية حتى تظل الجميع ذلك الفضاء، وتم تجديد الجامع في ولاية عبيدالله بن الحجاب سنة (١١٦ هـ / ٧٤٣م) واعاد تجديد زخرفته، ثم اضيف اليه فيما بعد بعض التجديدات ومنها زيادة ابوابه الى ١٢ باب^(١).

والناظر إلى جامع الزيتونة من أعلى منذنته يدهش فسحة هذا المسجد وانبساطه، وبهره إبداع قتيه وعظمتها، تقوم إحداها في مقدمته مشيرة إلى المحراب، وترقى الثانية وسط بهوه، في نهاية بلاطة هذا المحراب، والداخل إلى بيت الصلاة تأخذه الرهبة ويخيل إليه إنه ينتقل في حقل متسع من النخيل، لا يدرك النظر مداه، واستبدلت بجزوع النخل فيه أعمدة من الحجارة، تمتد فيه صفوف الأعمدة وتتسلسل فيه حلقات العقود، كان جامع الزيتونة أقل فسحة من بعض المساجد العتيقة الباقية، فهو لا شك من أبدعها مظهراً، وأقدمها عهداً، وقد لا يسبقه من هذه المساجد الجامعة، في مرحلة التاريخ وفي مرتبة الإبداع، غير ثلاثة مساجد : القيروان وقرطبة وسوسة .

(١) البكري، المسالك والممالك، ٦٩٧/٢، ناجي، عبد الجبار، المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات، ط١، (بيروت، ٢٠٠١م)، ٢٨٧.

وتخطيط المسجد محصور في مربع غير منظم الأضلاع ، طول جدار القبلة الخارجي فيه (٦١) متراً، والجدار الشرقي (٦٥) متراً، والجدار الشمالي (٥٧) متراً ، والجدار الغربي (٧٦) متراً، وذلك بعد حذف الإضافات التي أدخلت على الواجهة الشرقية في القرنين الرابع والسابع، ويشمل بيت الصلاة والمقصورة العليا الغربية والمحراب والمقاصير المحيطة به ، ومنها المنبر ومقصورة الإمام وثانيهما يشمل بهو المسجد وصومعته، أما بيت الصلاة فينقسم إلى سبعة أروقة موازية لجدار القبلة، يبلغ طول كل واحد منها (٤٥) متراً ونصف المتر، وتجتازها (١٥) بلاطة تبلغ طول الواحدة منها (٢٥) متراً ، وأما بهو المسجد فيكون مستطيل الشكل غير منتظم الأضلاع، يبلغ أكثر أضلاعه طولاً (٥٧) متراً ، وهو الجدار الشمالي، كما أن المحراب منحرف قليلاً عن بيت الصلاة ^(١) .

٢ - ميناء تونس ودار الصناعة

اختار القائد حسان بن النعمان لإنشاء الميناء الإسلامي الجديد موضعاً يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجنة، كانت هذه أول مرة ينشئ فيها العرب ميناء، وجمع حسان بين ما يتطلبه إنشاء ميناء من ضرورة وجودها على الساحل وبعدها عنه في نفس الوقت، فاختار حسان موضع سبخة تقع على الساحل، والسبخة هي منطقة رملية، ولكن رمالها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة.

وكانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة في الداخل، فرأى حسان أن موقعها يصلح لإنشاء مينائه، واختار موضع إنشاء الميناء عند نهاية السبخة من داخل الأرض، وشق في رمال السبخة قناة واسعة عميقة تخترقها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة، وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها ، وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر، لأن بينها وبين البحر هذه السبخة، وبُنيت حولها دار الصناعة ومساكن العمال والبحريين، وكانت السبخة تقع على

(١) فكري، احمد، مسجد الزيتونة الجامع في تونس، بحث منشور في المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤، (الاسكندرية، ١٩٥٢م)، ٦٩-٧٠.

